



اللاأدب.. وصناعة الوهم الإبداعي

للاأدب يجب أن يسير على النهج الذي يؤمن بما آمن به الطب، وهو أن «الوقاية خير من العلاج، وما أمنت به الصناعة، وهو البحث عن «معوقات الإنتاج» قبل البحث في وسائل زيادة الإنتاج، وما آمن به الجميع من أن دراسة «الآفات الزراعية» يجب أن تسبق التوسع الرأسي والأفقي فيها»^(١).

لعل الدراسة الموضوعية الجادة تلزم الباحث في مفهوم اللاأدب أن يبدأ، من حيث ينبغي له أن يبدأ، بتحديد ماهية الأدب؛ حتى يمكننا أن نحدد هذا المصطلح المنبثق عنه؛ فيلزمنا هنا التعريف بالأدب، من ناحية: المعنى المعجمي، والمعنى الاصطلاحي؛ وصولاً إلى المعنى الوظيفي له.

«ما الأدب؟» تساؤل لافأطلقه «جان بول سارتر» في النصف الأول من القرن العشرين ليثير الانتباه حول ماهية هذا السلوك الإنساني المألوف إلى درجة أفقدته المعيارية «الأدب»، وهو التساؤل الذي جعله عنواناً لجزء من أحد كتبه يناقش المصطلح الأهم في مجال الأدب والإبداع، مشيراً بذلك الشكوك والتساؤلات المعيارية حول مقومات الأدب، وما إذا كان هناك معيار يمكننا الاحتكام إليه في تصنيف نص ما تحت هذا اللون من الإنشاء اللفوي «أدب» أو في نفي الأدبية عنه^(٢).

وفي ردة فعل تتكامل مع صنيع سارتر طالعنا الدكتور محمود ذهني في آخر ستينيات القرن نفسه بكتابه «اللاأدب»، الذي يرى أن التخطيط السليم

— أحمد عبد العظيم رومية(*) — مصر —



أولاً: المعنى المعجمي للأدب:

يقول الأزهري في تهذيبه: «والأدب الذي يتأدب به الأديب من الناس، سمي أدباً لأنه يأدب الناس الذين يتعلمونه إلى المحامد، وينهاهم عن المقايح. يأدبهم أي يدعوهم، وأصل الأدب الدِّعاء. وقيل للصنيع يُدعى إليه الناس: مدعاة ومأدبة، ويقال للبعير إذا رِيض وذُلِّل: أديب مؤدب». ثم استشهد الأزهري بحديث ابن مسعود: «إن هذا القرآن مأدبة الله فتعلموا من مأدبته»^(٢).

أما الزبيدي فقد زاد في معجمه: «الأدبُ مَلَكَةٌ تَعَصُّمٌ مَنْ قَامَتْ بِهِ عَمَّا يَشِئُهُ، وَفِي الْمَصْبَاحِ: هُوَ تَعَلُّمُ رِيَاضَةِ النَّفْسِ وَمَحَاسِنِ الْأَخْلَاقِ. وَقَالَ أَبُو زَيْدِ الْأَنْصَارِيِّ: الْأَدَبُ يَقَعُ عَلَى كُلِّ رِيَاضَةٍ مَحْمُودَةٍ يَتَخَرَّجُ بِهَا الْإِنْسَانُ فِي فَضِيلَةٍ مِنَ الْفَضَائِلِ... وَفِي التَّوْشِيحِ: هُوَ اسْتِعْمَالُ مَا يُحْمَدُ قَوْلًا وَفِعْلًا، أَوْ الْأَخْذُ أَوْ



سارتر

الْوُقُوفُ مَعَ الْمُسْتَحْسَنَاتِ أَوْ تَعْظِيمُ مَنْ فَوْقَكَ وَالرَّقُّ بِمَنْ دُونَكَ، وَنَقَلَ الْخَفَاجِيُّ فِي الْعِنَايَةِ عَنِ الْجَوَالِيقِيِّ فِي شَرْحِ أَدَبِ الْكَاتِبِ: الْأَدَبُ فِي اللُّغَةِ: حُسْنُ الْأَخْلَاقِ وَفِعْلُ الْمَكَارِمِ، وَإِطْلَاقُهُ عَلَى عُلُومِ الْعَرَبِيَّةِ مُؤَلَّدٌ حَدَثَ فِي الْإِسْلَامِ. وَالْأَدَبُ: الظَّرْفُ بِالْفَتْحِ، وَحُسْنُ التَّنَاقُلِ، وَهَذَا الْقَوْلُ شَامِلٌ لِعَالِبِ الْأَقْوَالِ الْمَذْكُورَةِ، وَلِذَا اقْتَصَرَ عَلَيْهِ الْمُصَنِّفُ، وَقَالَ أَبُو زَيْدٍ: أَدَبَ الرَّجُلُ كَحَسُنَ يَأْدُبُ أَدَبًا فَهُوَ أَدِيبٌ، جَ أَدْبَاءٌ...»^(٣).

ويتحصل لقارئ هذه المعاني اللغوية لكلمة «أدب» عدة مسارات دلالية من أهمها:

- الأدب أداة تعليم وتكوين وتوجيه إلى محامد الأخلاق والصفات في الأقوال والأفعال.

- الأدب دعوة للمشاركة في خير من طعام ونحوه كما في حديث ابن مسعود، فهو اجتماع على أمر فيه منفعة ومصلحة متحصلة.

في مصطلح «أدب» ما يشير إلى العلاقة بين غذاء الروح وغذاء الجسد، فهو «مشتق من مادة أدب التي منها المأدبة وهي الاجتماع للطعام، وهذا الاجتماع يدعم المشاركة الاجتماعية في التعامل

مع معطيات الحياة، ويؤدي بالناس إلى التزام السلوك الأخلاقي النبيل الذي يضيف إلى جلسة الطعام بعداً جمالياً، بالتالي فالثقافة هي المأدبة الشعورية التي تتجمع حولها الإنسانية، ويمثلها الأدب لأنه الأخذ من كل شيء بطرف، كما يأخذ المدعو على الطعام من الألوان المتعددة التي توضع أمامه على المأدبة بشكل جميل مشاركاً من حوله في الطعام والحديث

أيضاً^(٤)؛ فإذا كان في المأدبة إشارة إلى غذاء الجسد، فإن من عبقرية العربية أن تشتق من المادة نفسها مصطلح «أدب» للدلالة على غذاء الروح ممثلاً في الكلمة البليغة المؤثرة في الوعي والعقل والوجدان. الأدب ترويض للنفس وسياسة لها بما يحسن به حانها قولاً وفعلًا، كمثل البعير الذي يقال له إذا رِيض وذُلِّل: «أديب مؤدب».

الأدب مشتمل معنى الظرف وجمال الهيئة والصياغة في الشكل، والدلالة والمعنى في الجوهر.

إنها دلالات إيجابية تصب جميعاً في مسار واحد هو الفعل الهادف إلى تحقيق المنفعة في عملية



تواصلية قائمة على وجود: مؤدّب يرؤّض ويذلل ويبث رسالته (مأدبته) الشهية، ومؤدّب يسعى إلى تحصيل مكارم الأخلاق والأفعال بمطالعة ما به ترتقي النفوس وتسمو الهمم، و«أدب» و«مأدبة» تمثل مادة طيبة متسمة بالجمال وحسن تناول من ناحية، والفائدة والعود بالنفع وتحقيق المصلحة من ناحية ثانية. وكلها معانٍ تمثل معينا ورافدا للمعنى الاصطلاحي لهذا الدال الثري «الأدب».

ثانيا: المعنى الاصطلاحي للأدب:

انطلاقا من معين هذه الدلالات تبلورت الدلالة الاصطلاحية للكلمة، بعدما مرت -كما أفادنا المعجم ودلتنا كتب التراث- بعدة تطورات دلالية: بدءا من الدلالة المرتبطة بالمأدبة وكرم الضيافة في العصر الجاهلي، انتقالا إلى المعنى الأخلاقي التهذيبي في العصر الإسلامي كما في قول كلثوم الشهر:

ومن كمي تخاف سورته

ومن غلام يزيئه الأدب

أو كما في قول النبي صلى الله عليه وسلم: «أدبني ربي فأحسن تأديبي»، ثم مرورا بالمعنى التعليمي في العصر الأموي؛ حيث وجدت طائفة من المعلمين تسمى المؤدبين، ووصولا إلى دلالة المصطلح في القرنين الثاني والثالث للهجرة وما تلاهما من قرون فصارت الكلمة تدل على السنن التي ينبغي أن تراعى عند طبقات خاصة من الكتاب.

وحديثاً أخذ المصطلح يتبلور في معنيين اثنين: معنى عام يطلق على كل ما يكتب في اللغة مهما يكن موضوعه وأسلوبه، وكل ما ينتجه العقل البشري من علم وفلسفة وأدب، ومعنى خاص يراد به «التعبير الجميل المؤثر في العواطف»، و«الكلام الإنشائي البليغ الذي يقصد به التأثير في عواطف القراء والسامعين». وهو في الغرب «مجموع الآثار النثرية والشعرية

التي تتميز بسمو الأسلوب وخلود الفكرة الخاصة بلغة ما أو بشعب معين»^(٦).

وهذه المعاني الأخيرة الخاصة بمصطلح «أدب» بعدما تبلور في صورته النهائية في كل من الثقافتين العربية والغربية تدور حول القيمة التأثيرية للأدب في عواطف جمهور المتلقين له، وبالتبعية ما يقوم عليه هذا الأدب من توظيف اللغة الإنشائية المتوسلة بجمال الأسلوب، متضافرا مع عمق الفكرة وسموها وخلودها.

يكشف ما يتحصل لدينا من مجمل المعنيين اللغوي والاصطلاحي عن بعد تداولي للأدب، بحيث نجده سلوكا لغويا قائما على شبكة تواصل طرفاها المرسل/الأديب، والمستقبل/قارئ الأدب ومتعاطيه، بحيث يصير الأدب بمثابة «تفاعل وجداني بين الفنان والمتلقي، يسبقه تفاعل بين الفنان والمجتمع، وينتج عنه تفاعل بين المتلقي والمجتمع. وهو بهذا الوضع ضرورة من ضروريات الحياة»^(٧). إنه إذن سلوك

العنان للفكر ليخلق في فضاء الخيال الذي يفارق الواقع ممهداً للإنسانية سبلاً جديدة من الأفكار والرؤى والاختراعات، التي نشأ الكثير منها عن خيال الأديب وتطلعاته، قبل أن تنتجها في الواقع عقول العلماء وأفكارهم.

- التسلية والترفيه: وهذه وظيفة يعطيها أصحاب بعض المذاهب الأدبية الحديثة - مذهب «الفن للفن» مثلاً - موقع الصدارة، في حين لا تعدو هذه الوظيفة كونها وظيفة واحدة من وظائف الإبداع الأدبي والفني.

وهكذا يُسلمنا هذا الاستعراض لوظائف الأدب الممكنة إلى سؤال مفاده: متى يكون الأدب أدباً؟ وكيف لنا أن نُحكم صياغة معيار كمي/وظيفي لقيمة الأدب؟

وهو سؤال يجد جوابه في الوقوف على مقدار ما يتحقق للعمل من وظائف الأدب؛ «فالمعمل الذي يحقق جميع أهداف الفن - أو معظمها - لا بد أن يكون أرقى وأرفع وأوقع من الذي يحقق بعضاً قليلاً منها. أما ذلك الذي لا يحقق شيئاً منها فإنه يعتبر عملاً غير فني»^(٩).

وإذا كان هذا هو مفهوم الأدب، وتلك وظائفه التي بمقدار ما يتوافر منها في عمل من الأعمال يرتفع قدره وتسمو أدبيته، فإنه - بمنظور الضد - إذا خلا عمل من تلك الوظائف جميعها، أو لم يكن له منها نصيب كافٍ ينهض به وبقدرة، فإنه يكون - والحال كذلك - عملاً يفتقد معنى الأدبية، فإذا انضاف إلى هذا الفقر الوظيفي اشتغال بوظائف عكسية تنافي الأدبية هنا تحقق ما يمكن أن نطلق عليه لفظ

إنتاجي يهدف إلى تحقيق جملة قيم وظيفية ترتبط بأطراف إنتاجه وتعاطيه: (الكاتب - القارئ - المجتمع)، ويمكننا تحديد أهم هذه القيم الوظيفية فيما يأتي^(٨):

- نقل التجارب الوجدانية عبر الأجيال: وهو ما يحقق توفيراً للجهد والوقت في إكساب الإنسان الوعي بأنماط التجارب الوجدانية المحتملة.

- التعبير عن مشاعر اللذة والألم: بهدف الاستزادة من الأولى، والتخفف من الثانية ومقاومتها، وهو معنى قريب مما أسماه أرسطو بـ«التطهير».

- تحفيز الروح الإنسانية: وإكسابها القدرة على تحدي الصعاب وتحقيق الأهداف، بإذكاء روح التوثب والتقدم ومحاولة الوصول إلى الأفضل على المستويين المعنوي والمادي على السواء.

- استعادة الماضي بانفعالاته ومشاعره: مما يوفر ذخيرة خبراتية تقدم له العبرة والعظة.

- الارتفاع بالفرائز الإنسانية وترقيتها والتسامي بها: بحيث

تصبح عوامل سمو وتحضر، لا انحطاط وتدنُّ.

- ربط أواصر الجماعة الإنسانية: بتصوير المشاعر الجمعية المتعلقة بأهداف جماعية وقومية وإنسانية موحدة، وبذلك يقوي الأدب الروابط التي تجمع الإنسان بالإنسان.

- فتح مجالات حضارية جديدة أمام البشرية: وتعميق فهمنا للحياة، من خلال إذكاء روح التخيل الأدبي، ولعل «أدب الخيال العلمي» يمثل النموذج الأبرز لتحقيق هذه الوظيفة، من خلال إطلاق

